

## إشكالية الشورى ١: الكيفية والآليات

عبد المنعم مصطفى

مركز القارئ للدراسات والنشر

### مدخل

شؤون المجتمع والدولة. ويتفق المعاصرون بلا استثناء أن الشورى واجبة (منهم محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد أسد وسعيد حوي ويوسف القرضاوي).

انه وبسبب القصور الاجتهادي المبدع وجد المسلمون انفسهم مضطرين الي تجاوز النصوص الشرعية ذات العلاقة ببنية الدولة، ولم يجدوا حتي اجتهاد يركنون اليه سوى القول بفقہ الضرورة والذي ورطهم في حرج كثير بعد أن أصبح قاعدة عامة بدلاً أن يكون استثناءً عارضاً.

### ديباجة :-

فقد المسلمون نموذجهم في الحكم بانقضاء الخلافة الراشدة. فمنذ نشوء دولة بني أمية مروراً بدولة بني عباس حتي انتهاء آخر مظاهر الخلافة بحل الدولة العثمانية تحولت السلطة إلي حكم وراثي داخل أسر اعتمد الغلبة والقوة في استلام السلطة. وجاءت فترة الاستعمار ثم الدولة الوطنية بعد الاستقلال في جلها بأنظمة للحكم إما ملكية أو عسكرية عبر الانقلابات.

مع فقدان النموذج العملي، ضعفت المساهمات الفكرية والمعرفية في قواعد وأسس نظام الحكم. وكانت النتيجة التي نعيشها اليوم أنه لا يوجد

لا زالت قضية الحكم والسلطة، قضية معلقة عملياً وفكرياً ولم يبت فيها بصورة مرضياً عنها مرجعياً.

من جدل الواقع، الجدل الفقهي الدائري عن إلزامية الشورى وذلك علي القاعدة الفقهية العتيدة بان الفتوى تختلف باختلاف الزمان والمكان والوقائع. القاعدة الفقهية الاجدر بالاسترجاع في هذه الحالة هي (حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله ودينه). والمصلحة هنا بمعنى الصلاح ضد الفساد. وليس بمعنى المنفعة، فالقضية تتعلق في عمقها بالدولة.

وللملتزمين من امثال ابن عطية وابن خويزمنداد ادراك عميق وآراء جليلة. فقد قال ابن عطية: (الشوري من قواعد الشريعة وعزائم الاحكام فمن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وان هذا لا خلاف فيه) .. وقال ابن خويزمنداد: (واجب الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما اشكل عليهم من أمور الدنيا، ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها) .. أي أن الشورى تنتظم كل

التداول مثال واضح علي الحجر الفكري الذي فرضه أهل السياسة علي الفقهاء وعطلوا به نمو الفكر السياسي وتطوره. ووصف بحق ما أسماه ادواء الانقسام النفسي والفكري في غياب الرؤية والتفكير الخلاق فيما يخص الدولة عند الناشطين والمفكرين المسلمين.

### مقدمة

تواجه الامة اليوم العديد من التحديات الماثلة في فترة ما بعد الحداثة (وفق المفهوم الغربي) وهي تحديات اقعدت بها كثير عن اللحاق بركب الريادة، هذا إضافة الي أن بعضها طارئ خارجي وآخر طارئ داخلي ولكن اخطرها جميعا هي التحديات البنيوية المرتبطة بالاصول القيمية. ولعل بعث مبدأ الشورى فكراً وحكماً وممارسة هو اهم هذه التحديات وذلك لان مفهوم الشورى متجذر في الفكر الاسلامي وفي الوجود الانساني ذاته كما يقرر القرآن الكريم وببسطه من خلال حوار الله تعالى مع الملائكة حول استخلاف الانسان له في الارض.

### التعريف بمصطلحات البحث

#### الشورى

الشورى لغة : في معناها الحر في تدل علي الاستبيان والاظهار والاستخلاص وقد جاء في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور انها مشتقة من شار العسل اي جناه من الوقبة<sup>(١)</sup> لأن بها يستخرج منها الحق والصواب وهو ما ذهب اليه ابن منظور<sup>(٢)</sup>.

والشورى اصطلاحاً تعني طلب الراي من عامة

أي نظام حكم معاصر يمثل أو يقارب النموذج. مع هيمنة الحضارة الغربية السياسية والثقافية والفكرية، وما قام داخلها من أنظمة للحكم تعتمد التداول الدوري للسلطة وتخضع ذلك للتعددية السياسية والانتخابات، مع المفهوم المصاحب للمواطنة زادت الضغوط الفكرية والسياسية علي المسلمين. وأصبحت أسئلة السلطة ونظام الحكم أكثر إلحاحاً في وجه المزايا النسبية للأنظمة السياسية في بريطانيا وفرنسا وأمريكا وبقية دول المنظومة الغربية.

لم تسعف كتابات الاحكام السلطانية والسياسية الشرعية في التراث، فهي في معظمها بررت للأنظمة الاستبدادية التي كانت تعايشها وأصبحت أشبه بالنصائح للملوك والسلاطين منها للبحث المعرفي عن القواعد والأسس. وجاءت بعض شروطها في شخص الحاكم شروط غير قابلة للتطبيق مثل (شرط القرشية) وحصرت المفهوم الفامض لأهل الحل والعقد في بطانة وعصبة الحاكم وصارت الشورى هي شورى الخاصة وبعد ذلك هي شورى مُعلمة وليس مُلزمة عند معظم المدارس.

فجر كتاب الشيخ علي عبد الرازق الرازق (الإسلام وأصول الحكم) (مع حل الدولة العثمانية) أسئلة السلطة ونظام الحكم بأقوى ما يكون. فقد خرج في نتائج بحثه أن منصب الخلافة ليس منصباً دينياً بل هو منصب زمني، يتبدل وتتغير شروطه وضوابطه بتغير الأزمان وفق مصلحة المسلمين. كما أورد المحامي خليفة السمرى في مقالاته. ورأي السمرى في مصادرة الكتاب والأمر بحرقه ومنع نسخه من

تاريخية طويلة حتى أصبح ما نراه، حديثاً، في مؤسسات الحكم القائمة في بريطانيا وفرنسا وأمريكا وبقية الدول الغربية. اليونان كدولة معاصرة، لم تعرف استقرار النظام التعددي إلا بعد منتصف القرن العشرين.

ارتكز المفكرون والمصلحون والكتاب مع عصر النهضة (القرنان ١٥، ١٦ الميلاديين) ثم عصر التنوير (القرنان ١٧، ١٨ الميلاديين) على إرثهم الإغريقي الروماني، وصاحب ذلك نشوء الدولة-القومية.

لم تأتي الأنظمة الديمقراطية على نموذج واحد فكل دولة ارتكزت على تاريخها وإرثها الثقافي (داخل إطار الإرث الإغريقي-الروماني) وما صاحب ذلك من حراك اجتماعي وفكري واسع ومن ثم أبدعت نظامها الخاص بها. فهناك أنماط وأشكال للنظام الديمقراطي بعدد الدول التي تبنته داخل أوروبا، بريطانيا، أم البرلمانات، نظامها ملكية دستورية، ترأس فيها الملكة أو الملك، الكنيسة والدولة. فكل دول أوروبا كانت محكومة بملوك ذوي سلطة مطلقة ومتوارثة، يشكلها ويتحكم فيها نخبة من ذوي الدم الأزرق من النبلاء (هولندا والدنمارك والنرويج والسويد لازالت ملكيات).

صدرت وثيقة الماكنزا كارتا، في بداية القرن الثالث عشر في بريطانيا والتي حددت من سلطة الملك ووسعت من دور دافعي الضرائب واللوردات (مجلس النبلاء) ثم تراجع دور مجلس اللوردات تدريجياً حتى آلت السلطة التنفيذية واختيار رئيس الوزراء بالكامل لمجلس العموم.

علماً بأن ديمقراطية أثينا القديمة كانت حصراً

الامة او ممثليها الشرعيين علي سبيل المثال اخذ الراي الملزم للحاكم<sup>(٧)</sup> وهي التداول الحر في الشأن الخاص والعام<sup>(٨)</sup> وعرفها الدكتور وهبة الزحيلي بأنها (المشاركة في اتجاز القرار)<sup>(٩)</sup>

الديمقراطية: وتعني اصطلاحاً حكم الشعب واذا كانت مباشرة فتعني (الديمقراطية القائمة عن اجتماع المواطنين جميعاً للتشاور واتخاذ القرارات المهمة بدون أي انتخاب او تفويض لمجموعة من النواب تتخذ تلك القرارات)<sup>(١٠)</sup> واذا كانت تمثيلية فهي (الديمقراطية القائمة عن النظم الانتخابية التي تقرر نواباً شرعيين يفوضهم الشعب لممارسة سلطات التشريع والرقابة العامة واتخاذ القرارات السياسية الملزمة للحاكم).

## المبحث الاول :

### الديمقراطية كارث اغريقي

#### المطلب الاول: النشأة والتنوع

أصبح شائعاً المطالبة بالديمقراطية والدعوة للنظام الديمقراطي. هذه الدعوة وتلك المطالبة تجيء من كل الأطراف في السلطة وفي المعارضة ومن الكتاب والمثقفين ومن الرأي العام. الدليل لا يحتاج إلى بحث، فلننظر ما تموج به المنطقة في مصر وتونس وانتشر وينتشر إلى دول أخرى.

وهذا هو حالنا داخلياً، فالتداول والحديث عن الديمقراطية مستمران ولم ينقطعاً منذ أن أخذ السودان استقلاله.

الديمقراطية لفظاً وممارسة أتت من المنظومة الغربية يرجع اللفظ إلى اليونان القديمة ويتكون من مقطعين مركبين وتعنياً (حكم الشعب). النموذج الإغريقي الأولي تم تطويره عبر مرحلة

لأسباب سياسية وأصحاب السوابق ومجموع الباحثين عن الثراء والمجد معظم الوقت والحرية أحياناً، أراد الأمريكيون بأصولهم المتنوعة والمتواضعة الانفصال عن العلاقة مع التاج البريطاني في حروب الاستقلال، في حين ظلت كل من كندا وأستراليا من مستعمرات الدنيا الجديدة على رابطة رمزية بالملكة والتاج البريطاني. جاء النظام الأمريكي رئاسي بمجلسين (الشيوخ والنواب)، يختار الرئيس كأعلى سلطة تنفيذية معاونيه في الحكم من غير المنتخبين ويوجه السياسة الخارجية ويتحكم المجلسان بالميزانيات.

هذا الاستعراض، هو بالضرورة، استعراض مختصر، أرجو أن يكون كافياً، والقصد منه التنبيه أن الأنظمة السياسية الثلاثة الشهيرة في المنظومة الغربية ردها تكوين اجتماعي وبعد تاريخي وثقافي ولد فيها التنوعات في نظام الحكم، فقد مرت ثمانية قرون ببريطانيا وأخذت الولايات المتحدة ثلاثة قرون لتتشكل أنظمتها الحاكمة وتستقر. المحصلة أن كل الأنظمة الثلاثة انتهت إلى تكوين مجلسين (العموم واللوردات في حالة بريطانيا)، و(الشيوخ والنواب في حالة أمريكا) و(الشيوخ والجمعية الوطنية في حالة فرنسا) واتجه النظام التعددي بالتدرج لنظام الحزبين (المحافظين والعمال في بريطانيا والجمهوري والديمقراطي في أمريكا على سبيل التوضيح). القواعد الإجرائية الرئيسية هي التداول الدوري للسلطة والاحتكام للمواطنين عبر الانتخابات والتعددية في تكوين الأحزاب وحماية حرية التعبير والتنظيم.

في المواطنين الأحرار ذوي الأصل الأثيني، ولا تشمل سكان أثينا من الغرباء والنساء والعبيد (والذين شكلوا نسبة تفوق ٩٠٪ من المجموع)، أي أنها لم تكن ديمقراطية حكم الشعب، إذا أردنا الدقة، بل حكم نبلاء الأصل الإثني.

## المطلب الثاني : من عصر النهضة الي العصر الحديث.

كبار فلاسفة اليونان، مثل أرسطو، كانت لهم مأخذ على النظام الديمقراطي وفضل أرسطو نظام إسبارطة شبه العسكري- سبقه أستاذه أفلاطون في وضع تصور لمدينته الفاضلة والتي يحكمها الفلاسفة وليس الشعب، جاء عهد الإصلاح الديني من ألمانيا مع مارتن لوثر وجاءت إرهابات النهضة من إيطاليا ومهد مؤلفون وكتاب كفولتير وجان جاك روسو (العقد الاجتماعي) ومونتسكيو (الفصل بين السلطات) الطريق للثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م. أرعبت الثورة الفرنسية كل الأنظمة الملكية في أوروبا وهزت تحالف الكنيسة والارستقراطية الإقطاعية. وكان موقف الثورة الفرنسية متشدداً في الفصل بين الكنيسة والدولة (اللائكية). تمخض الأمر بعد ذلك وبعد حروب نابليون في تأسيس جمهورية رئاسية برلمانية، ينتخب فيها الرئيس مباشرة من المواطنين ويأتي رئيس الوزراء (الوزير الأول) وحكومته من داخل الجمعية الوطنية ويخضع لحسابتها.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية في الأساس مستعمرة بريطانية ضمت حشود المهاجرين من الأيرلنديين والاسكتلنديين والمبعدين عن أوروبا

للجهاز التشريعي (مجلس الشعب) وتبعيته للجهاز التنفيذي، ثم عاد النظام البرلماني في ١٩٨٦م ولم يعمر كثيراً وذلك بحدوث انقلاب يونيو ١٩٨٩م. اتجهت الإنقاذ في البداية نحو نظام المؤتمرات الشعبية والحزب الواحد ثم تحولت بالتدريج للتعديدية السياسية في دستور ١٩٩٨م وفي الدستور الانتقالي في ٢٠٠٥م وأخذت بالنظام الرئاسي على النهج الأمريكي كما فعلت مايو.

يبدو أن هنالك توافق بين القوى السياسية على النظام الرئاسي ولكن الحوار الدائر هو أي نظام رئاسي نختار؟ على الطريقة الأمريكية أم الجمهورية الرئاسية البرلمانية على الطريقة الفرنسية؟ وتتجه معظم الآراء على قبول واسع للرئاسة البرلمانية. فالمزاج السوداني عبر شيخ القبيلة وشيخ الطريقة وزعيم الحزب (ليس فقط في الأحزاب التقليدية للأمة والاتحادي بل في التكوينات الحديثة الأحزاب ، كنقد والترابي والهدية وبدر الدين مدثر) وما سبق ذلك في المهدي والممالك الإسلامية في دارفور وسنار وتقلي، يبدو أن المزاج السوداني وإرثه في التراث الاجتماعي والتاريخي يوافق النظام الرئاسي ويتكئ عليه الأفراد والمجتمع بتلقائية.

ولكن بقي أن نحدد النظام الرئاسي ومؤسساته والتي تتواءم مع إرثنا التاريخي والاجتماعي وبعدها الثقافي.

إن أي قيم ومبادئ سامية إذا لم تتبعها إجراءات وقواعد قابلة للثبات والتطبيق الواقعي تصبح معلقة وتكون حديثاً في العموميات، وهذا واضح في حديثنا عن الشورى. فما هي آليات الشورى

واحتفظت كل أوروبا وامتداداتها في أمريكا وأستراليا وكندا ونيوزيلندا كمنظومة بمركية متمحورة حول ذوي الأصول الأوروبية. مع احتفاظ المنظومة الغربية بطابع مسيحي عام، فإن فرنسا الكاثوليكية هي الأكثر تشدداً في الفصل بين الكنيسة والدولة، ويلعب المحافظون المتدينون دوراً كبيراً في أمريكا، فقد دفعوا برؤساء بسندهم وتأيدهم إلى رئاسة الدولة (ريجان وبوش الابن في حالة الجمهوريين وكارتر في حالة الديمقراطيين وذلك على مدى العقود الثلاثة الأخيرة). في بريطانيا بطابعها الخاص، تحتفظ الملكة برئاسة الدولة والكنيسة معاً.

إن استقرار النظام السياسي واستمراره، يستمد بقاءه من القناعة العامة به وعمقه الفكري والوجداني والشعوري عند الشعب المعين ومن ثم خضوعه للإرث التاريخي- الثقافي للمجتمع.

#### المبحث الثاني: الحالة السودانية

مع الاستقلال في ١٩٥٦م أخذنا بالنظام البرلماني على نهج وستمنستر وهي تركة الوجود البريطاني بالسودان والذي أدخلنا للتأثير الغربي بارتباطاته المعاصرة. لم تمضي سنتان حتى جاء انقلاب ١٧ نوفمبر بقيادة كبار ضباط الجيش والذي حكم كقيادة بدون ذراع سياسي وكانت حكومته حكومة تكنوقراط.

ذهب نظام عبود بثورة أكتوبر في ١٩٦٤م وعدنا مرة أخرى للنظام البرلماني وفي أقل من خمس سنين جاء انقلاب مايو ١٩٦٩م والذي اتجه لنموذج دولة الكتلة الاشتراكية ومصر الناصرية أولاً، فأسس نظام الحزب الواحد ووضع دستور ١٩٧٢م على النظام الرئاسي مع ضعف واضح

وكيفياتها التي تتم عبرها؟

### المبحث الثالث : الشورى الكيفية والآليات

ففكرنا السياسي في التراث والمتمثل في مدونات الأحكام السلطانية والسياسية الشرعية برر للأمر الواقع التاريخي في وجود سلطة الملوك والسلاطين أصحاب السلطة الغير مقيدة وجعل من الشورى شورى خاصة وهي بعد ذلك شورى غير ملزمة.

الوحي في تحديداته كامل الوضوح وحاسم في أمر الشورى، فقد ألزم بها القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم مع عصمته ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) فما بالك بأي فرد آخر؟! وقد جاء معنى العزم الوارد في الآية، في الحديث، في بعض التفاسير أنه استشارة أهل الرأي ثم إتباعهم.

وكان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم العملي كقيادة وإمام وصاحب سلطة مبني تماماً على الشورى، حتى قال أصحابه أنهم لم يروا أحداً أكثر مشورة منه. يدلنا التصفح السريع لوقائع السيرة على مدى تحريره صلى الله عليه وسلم في الاستشارة في الشأن العام وأبان الأزمات والحرب والتي لم ينفرد فيها بالقرار كما في بدر وأحد والأحزاب وثبت مدى تحريره الاستشارة حتى في أخص خصوصياته، كما في حديث الإفك.

جعل القرآن من الشورى خصيصة من خصائص المجتمع المسلم ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

فأمر المسلمين، أي شأنهم العام كله شورى. توسط أمر الشورى الصلاة (عماد الدين)

والإنفاق (وأولى فرائض الإنفاق كواجب على الفرد وحق للمجتمع هي الزكاة). تأتي عادة الصلاة والزكاة في القرآن مقترنتان وهما من أوجب أركان الإسلام. فالإزامية الشورى أمر مفروغ منه ولا تخضع لتفريعات فقه الأحكام السلطانية والسياسية الشرعية، فهي نص قطعي الدلالة. وقد أضاع النظام السياسي وانحرافات، الشورى عندما أصبح ملكاً عضوياً.

فمن حيث المبدأ لا تقبل الشورى كما حددها القرآن وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم الموقف المتراخي والمتردد تجاهها والموقف الآخر الذي أسقطها تماماً.

ولكن ما هي المؤسسات والكيفية التي جرت عبرها وخلالها الشورى عند المؤسس عليه الصلاة والسلام؟

هنالك التباس يجب إزالته أولاً. فالرسول كرسول لم يكن للبشر دور في اصطفاؤه، ولكنه كقيادة لمجموعة، فقد توسل إليهم بالإقناع والرأي والحوار حتى ينال موافقتهم واختيارهم الطوعي. فقد سعى جاهداً لمقابلة الناس في المواسم لقبول به وبدعوته. وجاء أول عقد قبول وتأسيس في الدولة ببيعتي العقبة وفي البيعة الثانية هاجر بعدها صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فصار للدولة إقليم وشعب وسلطة. مثل أهل العقبة، غالبية شعبها من الأوس والخزرج وجاء تمثيلهم في مجلس سبعيني، فيه للمرأة مقعدين بحكم النوع وثلاثة مقاعد للشباب- تحققت شروط البيعة الكاملة في بدر (وهو شرط أن يحموه بما يحمون منه أنفسهم ووزاريهم) ولأول مرة بعد الهجرة اجتمع المهاجرون والأنصار القوتان المؤثرتان في المجتمع

دورة المجلس السبعيني ستة سنين (سبقت العقبة بدر، بمدة سنة على الأقل وجاءت قبل الهجرة) وأن تكون مثلاً دورة انعقاد المجلس المثوي خمسة سنين (نصف المدة التي مكثها الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة).

أخذين في الاعتبار أن مدة ولاية الرئيس خمسة سنين يمكن أن تجدد لمرة واحدة إضافية، حيث لا يتولى أي شخص المنصب أكثر من مرتين متتاليتين في مدة أقصاها عشر سنين.

### هوامش

١. محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير مجلد ٣ ص ٧٤
٢. ابو الفضل جمال الدين ابن منظور الافريقي لسان العرب ٢٣٢/٤ ط بيروت ١٩٩٠
٣. د. محمد وقيع الله احمد الشورى معاودة اخراج الامة ص ٢٩ ط وقفيه علي آل ثاني ٢٠٠٧
٤. المصدر السابق ص ٣٧٠
٥. د. هبة الزحيلي - الاسلام وبين الشورى والديمقراطية .
٦. د. محمد ويقع الله احمد مصدر سابق ص ٢٩
٧. المصدر السابق ص ٣٠

والدولة الجديدين. تخطى القرآن والرسول التسمية القبلية السائدة اجتماعياً باتجاه وصف المهاجرين والأنصار. فأغلب المهاجرين قريش ومعظم الأنصار أوس وخزرج ولكن طبيعتهم ووصفهم في الوضع الجديد اختلف، فهم أنصار ومهاجرين.

مثلت بدر الهيئة الثانية في تكوين مؤسسات الدولة، فبدر بوقوعها خارج حاضرة الدولة واشترك المهاجرين فيها مثلت البعد الجغرافي في تكوين مجتمعتها.

فالدولة قامت على مجلسين، مجلس أعلى سبعيني ومجلس أدنى مثوي. فقد كان دائماً أهل العقبة وأهل بدر هم أهل الشورى وأصحاب الحل والعقد في حياته صلى الله عليه وسلم وطوال فترة الخلافة الراشدة.

هذان المجلسان في تكوينهما التاريخي لم يكن لهما وسائل للإحلال لمن مات أو استشهد أو دورة زمنية للانعقاد أو وسائل إجرائية في التداول واتخاذ القرار.

التجربة والعرف الإنساني أمدانا بتلك الوسائل الإجرائية في الاختيار والانعقاد واتخاذ القرار وأن نضع دورة زمنية لتجديد أعضاء المجلسين. وجود المجلسين يتفق من حيث الشكل مع الأنظمة القائمة والممارسة (بريطانيا مجلس العموم واللوردات، أمريكا مجلس النواب والشيوخ) مع اختلاف رئيس، في أن النظم الغربية ترجع إلى إرثها الإغريقي- الروماني وفي مجلس العقبة وبدر نرجع فيهما إلى إرث النبوة.

فيمكن أن نتعارف عبر نقاش وحوار عام، حول دورة زمنية لكل مجلس، فمثلاً يمكن أن تكون